الفصل الثالث

التناسب بين

الأغراض داخل السورة

الفصل الثالث

التناسب بين الأغراض داخل السورة

كشف الفصل السابق عن المدى الذي وصلت إليه نظرية النظم بإجرائها في مجالات أعم من مجالها إلى علاقات الآيات داخل السورة وما بينها من نسب أوجبت تجاورها وتجانسها في بناء كلي، وهي وإن شطت بالنظرية إلى علاقات أبعد غورًا من العلاقة بين الجملة والجملتين إلى ملاحظة التجاوب وأسباب الوصل ونسبها المعنوية بين الآيات في مساحات السورة بأكملها، وابتعدت عن المألوف إلا أنها تظل في دائرته لم تجتث الفكرة من أصولها، وإنما تطاولت وتسامق فرعها وعلا على أصله، بينما نجد بحثه لتناسب الأغراض امتد بالفكرة من الهيئات التي تتشكل بالرجوع إلى الآيات الأخرى في حيز محدود إلى الهيئات المتصورة من علاقات الانتظام والتحولات في البنى المعنوية والأغراض داخل السورة بأكملها على اختلاف توزيع هذه الأغراض قربًا وبعدًا وائتلافًا واختلافًا.

ومعاني القرآن هي مجال من مجالات الإعجاز نبه أكثر العلماء عليه، لكن توجهت أنظارهم تلقاء طبيعة المعاني ووجه تأديتها وكرم أصولها وصحتها واستقامتها في العقول، أشار إليه الخطابي في قوله: «وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»[1].

وهذا أصل معتبر ولكن أصل الأصول في هذا الباب هو تأليفه لمعانيه وجمع معاقدها، والملائمة بين ما تمايز ظاهره فعاد معنى واحد لا اختلاف فيه ولا تباين، وهذا من البلاغة الخاصة بالقرآن تجد الأغراض تترامى ويتقاذف بها القول في نواحي مختلفة وأودية متباعدة ثم تجد أصولًا عامة تستوعب ذلك كله وتجعله بابًا واحدًا.

وليس المعول في تأليفه على اللغة ونظمها وإنما هو ضرب عجيب من التأليف يصيّر المختلفات مؤتلفات ويعيد ما تنافر آحادًا[2] سبيلك في ذلك زيادة تأمل لحركة المعنى داخل منظومة السورة كلها ثم ملاحظة ضميمة الغرض إلى سابقه وكيف نشرطيه وانسل من جنباته ووطأ له مهاده، فتمكن في موضعه.

---

(١) "بيان إعجاز القرآن" ص٢٧.

(٢) "إعجاز القرآن" الباقلاني ص ١٩٦، ١٩٧.

وقد فطن له عرب الجاهلية فتقاصر بيانهم عن مجاراته ورضوا بالعجز عن التحدي، فليس لفظه وحده هو الذي بهر وإنما تضاعف الإعجاز لما رأوا تنوعه في تصريف المعاني المتفقة والأصول الواحدة في أنحاء مختلفة، ولخص الوليد بن المغيرة ذلك بقوله: «إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمعذق» والمعذق: كل غصن له شعب، فهذه الكلمة على وجازتها استوعبت أسلوب القرآن لفظًا ومعنى، وما يعنيني هو قوله «أسفله لمعذق» وكأن هذا القرشي هالته أصول معاني القرآن وما يداخلها من حياة ونماء تتفرع ثم تكون أصولًا يتفرع عنها فروع، وهكذا تنامٍ وامتداد لا نظير له ولا يضبطه بيان إنساني.

ومقولة الوليد تستوعب ثقافة ذلك الزمن وأن العربي لم يكن يعنى بالألفاظ فحسب وإنما ينظر إلى المعاني وبلاغتها، وبلاغتها ليست في إيصالها وتصويرها وإنما في إحكام بناء الكلام وبسطه وكيف يكون متكاثرًا في مباني اللغة ومتناميًا في أصوله ذاتها.

ولم يغفل علماء البيان حينما جمعوا مذاهبه وقوانينه هذا الأصل بل جعلوا اتساق النظم وتسديد خصاص معانيه شرطًا في البلاغة لا يعذر المتكلم بتركه ولا يرخص له التهاون به وإن شغب شاغب، فكأن ثبات القول هو صورة لثبات جنان قائله وقوة منته، وهنا ربط جيد بين نفس القائل والقول؛ لأن اقتدار المتكلم على ضبط أحوال نفسه وسياستها هي سياسة محكمة للقول وتصريفه وإحكامه، يقول الجاحظ: «وأنشد أبو عبيدة في الخطيب يطول كلامه، ويكون ذكورًا لأول خطبته وللذي بنى عليه أمره وإن شغب شاغب فقطع عليه كلامه أو حدث عند ذلك حدث يحتاج فيه إلى تدبير آخر، وصل الثاني من كلامه بالأول، حتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر، فأنشد:

وإن أحدثوا شغبًا يقطع نظـــمها ... فإنك وصـــال لما قطع الشغب

ولو كنت نساجًا سددت خصاصها ... بقول كطعم الشهد مازجه العذب»[1]

(١) "البيان والتبيين" ١/ ٢١٥.

وهذا الوجه من أبواب البلاغة الغائبة في دراسة السابقين للإعجاز وإن نبهت إليه أقلام ودلت عليه إيماء دون أن ينص على الشيء ما هو ويكشف عن وجهه، باستثناء ما وجدناه عند الباقلاني من شذرات نظر بها له وأجراها في سورة من سوره نبه فيها على نسب المعاني وأصولها وائتلاف فروعها على تنوعها، وأن هناك وشيجة تضبط حركة المعنى وتوجه دلالته لمقصد كلي تلتقي عنده المعاني فوقف عند بعض مقاطعها وفصولها ونبه على بلاغة الوصل فيما يستعصي فيه الوصل وكيف عاد مؤتلفًا واجتمع مؤتنسًا ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[غافر:٧].

يقول: «ذكر المؤمنين بالقرآن بعد ذكر المكذبين بالآيات والرسل.... وهذا الكلام مفصول، تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه إلى ما تقدم وانقضى، وعظم موقعه في معناه، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم»[1].

ثم قال في تناسب آيات التوحيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

«وإنما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما؛ لتناسبهما في أنهما من تنزيله من السماء، ولأن الرزاق الذي لو لم يرزق لم يمكن بقاء النفس، تجب طاعته والنظر في آياته»[2].

وقد ذكر هذا الباب في مواقع متفرقة من الكتاب في قوله: «إن القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حدِّ الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حدِّ العادة ويتجاوز العرف»[3].

---

(١) "إعجاز القرآن" ص ١٩٨.

(٢) "إعجاز القرآن" ص ١٩٩.

(٣) السابق ص٣٨.

وفي نص آخر: «فتأمل آية آية لتعرف الإعجاز وتتبين التصريف البديع والتنقل في الفصول إلى آخر السورة... واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء: من احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى، مختلفة تأتلف بشريف النظم ومتباعدة تتقارب بعلي الضم»[1].

والباقلاني لا يقصد بشريف النظم وعلي الضم الروابط اللغوية الظاهرة وإنما مراعاة مقاصد المتكلم في الخطاب أي «انتظامًا يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله»[2].

وسمي فيما بعد بـ «صحة النسق» وهو: «أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا اراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقًا بالأول غير منقطع عنه»[3].

واستقر في صورة متكاملة عند حازم القرطاجني استوعب بها كلام السابقين وفصل مجمله، ودعم أركانه وسمى ذلك بالأسلوب، وقد وصف هذا الباب وصفًا دقيقًا موجزًا يقول: «لما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد، ومسائل منها تقتنى كجهة وصف المحبوب، وجهة وصف الخيال، وجهة وصف الطلول، وجهة وصف يوم النوى، وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من بعضها إلى بعض وبكيفية الإطراد في المعاني صورة وهيئة تسمى الأسلوب - وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ ؛ لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة جهة من جهات غرض القول وكيفية الاطراد من أوصاف جهة جهة، فكان بمنزلة النظم في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب، فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية»[4].

---

(١) "إعجاز القرآن" الباقلاني ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) "عيار الشعر" ابن طباطبا ص ٢١٣.

(٣) "سر الفصاحة" ابن سنان ص ٢٦٨.

(٤) "المنهاج" ص ٣٦٣.

فالأسلوب هو ما يتشكل في النفس من صور وهيئات لمعانٍ ثانوية تتولد من الاستمرار في جهة من جهات المعاني والتفريع عليها أو النقلة من جهة إلى أخرى. فكما أن النظم في الألفاظ صورة لما ترتب في النفس، فكذلك الأغراض والمعاني انتظامها بكيفية مخصوصة هو صورة لما انطبع في نفس المتكلم وذهنه من مقاصد وأغراض، وهذا قياس محمود فتح به أصلًا من أصول البلاغة الغامضة فكثيرًا ما يتردد الأسلوب في مقابل العناية باللفظ ونظن أنه أعم من النظم دون النظر إليه باعتباره وصفًا خاصًا بالمعاني.

ونص حازم يكاد يكون شرحًا لمجمل النسق عند الخفاجي، ومدخله في ذلك النظر في الأقاويل الشعرية من حيث استمرار الشاعر في المعنى واستئنافه لمعانٍ جديدة ثم علاقة المعاني المطردة والمعاني المستأنفة وكيفية الملائمة وضروب التعلق بين تلك المعاني، وأضاف على نص الخفاجي ربط ذلك بجهات المعاني، فغرض النسيب تقوم فيه جملة معانٍ لها جهات مختلفة تكاد تكون أصلًا في بابه، ولكن طريقة الشاعر في التنقل من جهة إلى جهة أو الاستمرار في بعض الجهات هو الذي ينوع هذه المعاني ويبعث فيها الجدة ويشكل للمتكلم سمت بيانه ويجعل له خصوصية عن غيره، وإن اتفق معهم في أصل المعنى؛ لأن ما يعتمده من أنحاء الترتيب والتنقل هو الذي يكون هيئة وخصوصية زائدة على الأصل.

وحازم يجعل ضابط الأسلوب هو التأمل في اقترانات المعاني وجهات انتهاء كل معنى لما قبله وما بينهما من نسب وحسن التناسب والتلطف في الانتقال من جهة إلى جهة والصيرورة من مقصد إلى مقصد، فوضع بذلك المنهاج لمعالم الأسلوب ودل على مدخله.

فهيئات المعاني المودعة في الألفاظ والمطوية في أبنية التركيب بحثت ودل عليها ونبه على ما فيها من لطائف وأسرار وكيف تشكلت وأبانت، وبقي وراء ذلك باب حجب عن الكثيرين لصعوبة مراسه وحاجته إلى شمولية النظر ودقة التأمل فليس دركه بظواهر الألفاظ أو أبنية التراكيب وإنما سبيله التغلغل في جهات المعنى وزواياه وفي أصول المعاني والأغراض وكيف انشق عنها ونبع من معينها ثم يجمع أطراف المختلفات ويؤلف منها ما تباعد وتنافر في ظاهره؛ ليجعله قضية واحدة وإن توزعه الكلام أنحاء مختلفة ومواقع متباينة.

وحازم لم يسبق إلى تحديد موضع الأسلوب في المعاني وإنما أفاد ذلك من الرازي؛ لأنه يكاد يكون أول من خص الأسلوب بالترتيبات الحاصلة بين المعاني وما ينتج عنها من تنبيهات ولطائف هي ولائد ذلك الترتيب يقول في هذا: «ومن تأمل لطائف نظم هذه السورة وبدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور»[1].

وتأمل قوله: «ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه، أرادوا ذلك»– أي الترتيب – فكأن مصطلح حسن الأسلوب لم يخصص قبله بشيء وإنما كان قسيمًا لفصاحة الألفاظ، فكانت هذه المقابلة خطوة أولى لكشف خبيء الباب والتنبيه عليه ليطلب، ويؤكد صحة ما ذهبت إليه قوله «إنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذا الباب». أي أنه أول من فتحه وهتك الحجب دون ضميره، وكلام حازم لا يعدو أن يكون فهمًا محكمًا وتلخيصًا دقيقًا لعلاقات الترتيب بين الأغراض عند الإمام وما وراء أحوالها من رقائق المعاني ولطائفها أو ما سماه بالتنبيهات.

وهذا لا يعني التقليل من شأن حازم وإنما ردّ الكلام إلى منبعه ولفت الأنظار إلى كيف كان علماؤنا يصنعون أبواب البلاغة ويقعدون لها، وأن مرحلة التقعيد لا تكون إلا بعد إجراء الأصول في النصوص وتحريكها بها ثم تأتي القاعدة لتضبط تلك الحركة وتؤسس لها، فالأسلوب كان يحتاج خطوة واحدة فقط وهي نقله إلى سياقه وإجراؤه في حقله والعناية به كما يعنى بالألفاظ وحسن تجاورها واتصالها وما يتولد عن البناء اللغوي من خصوصيات وأحوال؛ لذلك لم تكن عناية الإمام بالتقعيد ووضع منهج نظري، وإنما كان يتتبع صحة ما هداه إليه ذهنه من أن الأسلوب هو الترتيب بين المعاني، فأخذ يتأمل مقاطع الكلام وأغراضه والقطع والرجوع والاستمرار في جهة من الجهات وفي كل ذلك تتشكل هيئات معنوية زائدة عن الإفادة باللغة ولم يكن لهذا منبع سوى نسق المعاني والتأليف بينها. فكان جلّ عنايته بالمعنى وعلاقاته وأحوال تأليفه.

---

(١) "التفسير الكبير" ٣/١٠٦.

فالتفسير جهد ضخم في دراسة المعنى وما يتشكل عنه من مقاصد وما يعتريه من تغيرات وزيادات ناتجة عن انتظامه مع غيره وترتيبه على ما قبله من المعاني.

وتحاول هذه الدراسة أن تصف منهج الإمام في التناسب بين الأغراض، وما توحي به النصوص التطبيقية من أصول وضوابط في توجيه انتظام الكلام، وملاحظة طرق وأنماط الترتيب بين الأغراض وما يسند إليه في رد المعنى على المعنى من قرائن.

وهذا الباب ليس له قانون يحيط به، ولا حد يحصره ؛ لأنه نمط من التصريف والتنويع، يأتلف بتنظيم المدلولات اعتمادًا على أبنيتها الداخلية، ودرك ذلك لا يكون إلا بالعقل وزيادة تأمل؛ لأنه تنظيم لما اختلف، والكلام يعتبر فيه الاختلاف حتى أنه لا يسمى نسقًا حتى «تكون الأشياء مختلفة في أنفسها، ثم يكون للذي يجيء بها مضمومًا بعضها إلى بعض غرض ومقصود، ولا يتم ذلك الغرض وذلك المقصود إلا بأن يتخير لها مواضع فيجعل ذلك أولًا وذاك ثانيًا»[1]. والوقوف على المقصد من تنزيل المختلفات منازلها وترتيب بعضها على بعض يحتاج إلى مراجعة عقل، وإنعام تدبر، وقد حدد الإمام ابتداء مقاصد القرآن وأصول معانيه فوجد أن مدار القرآن على ثلاثة أصول، وهي التوحيد، والنبوة، والمعاد، ويقترن بها أحيانًا القضاء والقدر، يقول في هذا: «اعلم أنا بينا مدار أمر القرآن على تقرير هذه المسائل الأربع وهي: التوحيد، والنبوة، والمعاد، والقضاء والقدر»[2].

وأكثر التفسير تتبع لنبع هذه الأصول تحت جمل القرآن وألفاظه، من مثل تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] فـ «ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعدما سبق منه تقريرها بالدلائل، فقوله: «﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى الرسالة، وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر»[3].

---

(١) "دلائل الإعجاز" عبد القاهر الجرجاني ص ٤٧٣.

(٢) "التفسير" ٥/ ٢٥٥، وينظر: ٧/ ٢٣١.

(٣) "التفسير" ٩/ ٢١٤.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة:٤٥-٤٧]. ذكر أن فيها «لطيفة وهي أنه أشار في الآيات الثلاث إلى الأصول الثلاثة فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ من حيث الاستعمال يدل على ذمهم بإنكار الرسل، إذ المترف متكبر بسبب الغنى فينكر الرسالة، والمترفون كانوا يقولون: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ وقوله: ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ ﴾ إشارة إلى الشرك ومخالفة التوحيد. وقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ إشارة إلى إنكار الحشر والنشر»[1].

فتأمل كيف بعث الأصلين من نظم الآيات، فدلالة الحشر ظاهرة لأنها مدار السورة، وكذلك التوحيد، فاستدعى اجتماع الأصلين المعنى الثالث وهو النبوة فنزع بدلالة «مترفين» إلى لازمها وهو إنكار الرسل، فالتقت بذلك الأصول الثلاثة وتقرر بذلك «أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث»[2].

واتفاق معانيه على أصول مقررة لا يعني ثبات الدلالة بل يستدل به على بلاغة القرآن وقوة تصريفه للمعاني المعدودة وكيف يترامى بها في أودية مختلفة ويتصرف بها في كل منزع، وليس ذلك إلا بالترتيب، فتارة يجعل أحدهما أصلًا والآخرين فرعًا، وأخرى يكون الفرع أصلًا، وهكذا تتشكل معانيه وتتسع وتتنوع ببناء بعضها على بعض. ذكر ذلك في سورة «يونس» حيث قال: «إنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد البتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولًا يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين: أحدهما: إثبات أن لهذا العالم إلهًا قاهرًا قادرًا نافذ الحكم بالأمر والنهي والتكليف. والثاني: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما»[3].

---

(١) "التفسير" ١٠/ ٤١١.

(٢) السابق ٩/ ٣٩.

(٣) "التفسير" ٦/ ١٨٨.

فدلائل الألوهية والحشر جاءت استمرارًا وتتميمًا لمعنى النبوة وإثبات الرسالة. فكل أصل يوضع منزلة يكون بها المدار وغيره تابعًا له. وملاحظة هذه المنازل هي الهادية إلى نمط التصريف والكاشفة عن وجه الإبانة فيه. فتأمل تحليله لقوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس:٣٧]. يقول: «لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي... ومثله مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت:٣٧]. ثم قال بعده: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت:٣٩]. حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضًا، لكن المقصود أولًا هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ ﴾ ثم الحشر بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ وههنا المقصود أولًا إثبات الحشر؛ لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر، يدل عليه النظر في السورة، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[فصلت:٩]. إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر»[1].

فالأصول وإن كانت متفقة إلا أن ترتيبها واختيار منازلها وجه الدلالة ونظّم المباني جهة المقاصد، فقدم المكان في سورة «يس» لأنه أقوى في الإبانة عن الحشر، وقدم الزمن الليل والنهار والشمس والقمر في سورة «فصلت»، لأنها أدل على التوحيد، ولكن اقترانها بسياق الحشر في سورة «يس» خرج بها إلى معنى الحشر؛ لأنه موضع عناية السورة.

وهذه الدلائل وإن كانت في أصلها دلائل توحيد إلا أنها تشكلت بهيئات مختلفة تشربتها من مقاصد السورة، فالاستدلال بالزمن لما اقترن بالسجود دل على الوحدانية التي هي مدار «فصلت»، وفي «يس» تضمن معنى الحشر؛ لأنه أصل الأصول فيها.

---

(١) "التفسير" ٩/ ٢٧٥.

فهذه الأصول لا تتجرد للدلالة على ذات المعنى وإنما يداخلها معانٍ أخرى ناتجة من تجاورها مع غيرها من السياقات، ففي سورة «النحل» يداخل دلائل التوحيد معنى الإنعام فقد «ذكره الله تعالى؛ ليستدل به على وجود الإله المختار الحكيم، وليكون ذلك تنبيهًا على إنعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم»[1].

ودراسة الرازي للتناسب بين الأغراض تتمثل في تحديد مقاطع الكلام للوقوف على النقلة أو الاستمرار في المعاني، والاستمرار في المعنى يكون لباعث يوجب إتمام المعنى وإزالة ما فيه من إبهام أو وهم أو تفصيلًا لمجمله كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٧]. فهي استمرار لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[الشورى: ٢٦]. يقول: «اعلم أنه لما قال في الآية الأولى إنه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة. فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ؟ فأجاب عنه بقوله: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي ولأقدموا على المعاصي، ولما كان ذلك محذورًا وجب ألا يعطيهم ما طلبوه»[2].

وقوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. فهذا المقطع استلزمه واقتضاه قوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١]. فلما كان هذا المعنى «مما يقوي قلوب المطيعين، ومما يكسر قلوب الفاسقين أتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين»[3].

---

(١) "التفسير" ٧/ ١٩٢.

(٢) "التفسير" ٩/ ٥٩٨.

(٣) "التفسير" ٦/ ٢٧٥.

وأما النقلة في الكلام فهي خروج وانتقال في المعنى ودخول في سياق آخر، وقد نبه الرازي كثيرًا على مقاطع الكلام ووجه العلقة بين الأغراض المختلفة وكيف اتسق بعضها مع بعض فسورة الإنسان يجعلها غرضين متقابلين، فعندما عرض لتفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣]. نبه على أن هذا مفصل آخر للكلام؛ لأنه «سبحانه بين في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم.. ثم بين أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين منهم شاكر، ومنهم كفور... ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء... فظهر مما بينا أن السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين، أما المطيعون فهم الرسول وأمته، والرسول هو الرأس والرئيس، فلهذا خص الرسول بالخطاب... ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام»[1].

وأيضًا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٣].

وهذا الفصل وإن كان غرضًا برأسه فهو دال على وجود الصانع إلا أنه يتصل بما قبله ويضيف إليه؛ لأن «هذه الدلائل أيضًا دالة على كونه منزهًا عن الشريك؛ لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، ووجود إلهين يقتضي وقوع الفساد، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم، وفيها أيضًا رد على عبدة الأوثان من حيث أن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع»[2].

---

(١) "التفسير" ١٠/ ٧٥٧.

(٢) "التفسير" ٨/ ١٣٦.

فهي وإن كانت مقطعًا مختلفًا؛ لأن الغرض منها الرد على عبدة الأوثان إلا أنها داخلة في تقرير التوحيد فهي كالتأكيد له.

وذِكرُ واقعة حنين في سياق التحذير من مخالطة المشركين وإن كان ظاهرها غرضًا أجنبيًّا إلا أن اقترانها به و إلحاق معناها ومداخلته لذلك السياق أسبغ على الواقعة معنى وجعلها رمزًا عضد به المعنى السابق، وزاد في توكيده وإظهاره؛ لأنه من باب الأمثال والمثل يجلي المعنى ويقويه. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى ذكر في الآية المتقدمة أنه يجب الإعراض عن مخالطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وعن الأموال والتجارات والمساكن، رعاية لمصالح الدين، ولما علم الله تعالى أن هذا يشق جدًّا على النفوس والقلوب، ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضًا، وضرب تعالى لهذا مثلًا، وذلك أن عسكر رسول الله ﷺ في واقعة حنين كانوا في غاية الكثرة والقوة، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين، ثم في حال الانهزام لما تضرعوا إلى الله قواهم حتى هزموا عسكر الكفار، وذلك يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه، فكان ذكر هذا تسلية لأولئك الذين أمرهم الله بمقاطعة الآباء والأبناء والأموال والمساكن؛ لأجل مصلحة الدين، وتصبيرًا لهم عليه، ووعدًا لهم على سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلك فالله تعالى يوصلهم إلى أقاربهم ومساكنهم على أحسن الوجوه، هذا تقرير النظم وهو في غاية الحسن»[1].

وأحيانًا يكتفي بالتنبيه على النقلة والقطع دون بيان لوجه العلاقة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ * أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢١-٢٥]

(١) "التفسير" ٦/ ١٨.

يقول: «اعلم أن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالًا وجوابًا، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد»[1].

وسكت عن بيان الوجه لقوة ظهوره؛ لأن النبوات كلها جاءت لتوكيد التوحيد ونفي الأضداد والأنداد، فالسكوت عن بيان الوجه مرجعه إلى قوة ظهوره.

والنقلة أحيانًا تكون بالرجوع إلى الغرض الأصلي، فتارة يأتي معنى ثم ينقل منه إلى غرض آخر ويستمر في التفريع على ذلك الغرض فإذا استوفاه عاد الكلام إلى البيان الأول، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما شرع في شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك فلما تم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم وفرع على كل قسم ما كان لائقًا به، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته»[2].

وأحيانًا ينعطف الكلام إلى الغرض الأول بعد أن يوطئ له بآية تكون قفلًا لما قبلها وتجسر للرجوع، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]. فالآية تتصل بسبب من الغرض السابق لها فهي كالمؤكد لخطأ نسبة الغلول إليه؛ لأنه نشأ بينهم ولم يظهر منه إلا الأمانة والصدق فكيف يليق به هذا الوصف، وقد يكون الانتقال لوصفه عليه الصلاة والسلام وبيان شرفه لإلزام كل ذي لب أن يعينه وينصره «فوجب عليكم أن تحاربوا أعداءه، وأن تكونوا معه باليد والسيف،

(١) "التفسير" ٨/ ١٢٥.

(٢) "التفسير" ٦/ ١٥٠.

والمقصود منه العود إلى ترغيب المسلمين في مجاهدة الكفار»[1]. فليس الغرض إثبات خلوه من العيب. وإن كان هذا الأمر مفروغًا منه، وإنما المسألة أنه موصوف بأعلى الصفات، وأنه نعمة يمنها الله عليهم فيجب عليهم نصرته وإعانته، وهذا هو غرض السورة ومدارها.

وقد تكون النقلة لتناسي المقصود الأصلي أو الغرض الأول فيخرج إلى معنى آخر لا تعلق له بالمعنى الأول، فيخرج إلى معنى ثانٍ ثم يضمن ذلك المعنى جزءًا من الحجة التي تقيم المعنى الأول وتقرره، فيكون هذا أبلغ في إلزام المخاطب، فالاستطراد هنا لإيهام المخاطب واستدراج ذهنه لتصديق المعنى الأول، ذكر هذه الدقيقة في تفسيره سياق قصة داود عليه السلام في نسق ما قبلها من حكاية المستهزئين من الكفار وأنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة يقول فيها: «ولما حكى الله عنهم ذلك لم يذكر الجواب، بل قال ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]. ومعلوم أنه لا تعلق بذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق،... ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة، وإن كان كذلك كانت هذه الفصول فصولًا متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض... والجواب:..... أن العقلاء قالوا: من أبلي بخصم جاهل مصر متصلب، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة... وأن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك الأجنبي، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعًا مفحمًا.... إن الكفار لما بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:١٦]. فقال: يا محمد، اقطع الكلام معهم في هذه المسألة واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة، وهي قصة داود عليه السلام، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر، ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة ثم قال في آخرها: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

(١) "التفسير" ٣/ ٤١٧.

وكل من سمع هذا قال: نِعْمَ ما فعل حيث أمره بالحكم الحق. ثم كأنه تعالى قال: وأنا لا آمرك بالحق فقط، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضي بالباطل فههنا الخصم يقول: نِعْمَ ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق فعند هذا يقال: لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر»[1].

وهناك مقاطع يقف عندها ويستحضر بها السياقات السابقة ويعيد تنظيم وترتيب فصول السورة بجمع معاقد معانيها ووصل كل غرض برأس الغرض الآخر حتى يصل إلى ما يريد بيانه في الآية التي هو بصدد تفسيرها، كما في قوله تعالى﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ۝ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[ص ٦٥-٧٠].

يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما حكي في أول السورة أن محمدًا ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد، وإلى أنه رسول مبين من عند الله، وإلى أن القول بالقيامة حق، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا: إنه ساحر كذاب واستهزءوا بقوله، ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين، الأول: ليصير ذلك حاملًا لمحمد ﷺ على التأسي بالأنبياء -عليهم السلام- في الصبر على سفاهة القوم. والثاني: ليصير ذلك رادعًا للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعيًا إلى قبول الإيمان. ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وعقاب أهل العقاب، فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي تقرير التوحيد والنبوة والبعث، فقال: قل يا محمد: إنما أنا منذر... فإن الترتيب الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولًا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب... لأن إزالة ما لا ينبغي مقدمة على إثبات ما ينبغي.. ومن نظر في هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم»[2].

---

(١) "التفسير" ٩/ ٣٨٨.

(٢) "التفسير" ٩/ ٤٠٦.

وهذا تلخيص محكم صور لك السورة بناء واحدًا ولم يغفل فيه أصلًا من أصولها وطوى ما بين الأغراض ونبه عليه بقوله: «تمم» لأن الفرع هو تشعيب للأصل وتكميل لدلالته فهو جارٍ فيه غير مستقل بذاته، حتى وإن كان هذا الفرع أصلًا لفروع أخرى فإنه منتمٍ إلى غرض أعم يستوعبه ويحيط بدلالته.

وفي تلخيص آخر يجعل فيه الكلام مصبوبًا لغرض واحد كل معنى يقتضي ما بعده لا تشعب ولا فروع كما في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فـ «هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبي ﷺ كان يهددهم بنزول العذاب... ثم إن الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته، وكانوا يبالغون في استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية، ثم إن الله سبحانه وتعالى بين أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد، ثم ضرب لهذا أمثلة، وهي واقعة نوح وواقعة موسى -عليهما السلام- مع فرعون وامتدت هذه البيانات إلى هذه المقامات، ثم في هذه الآية بين أن جد الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل وفي الجواب عن الشبهات لا تفيد؛ لأن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته»[1].

وتارة يخلص من هذا التلخيص إلى أن ما قبل هذه الآية هو تمهيد وتوطئة لها فيجعلها مركز السورة، كما في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها.. فعند هذا صرح

(١) "التفسير" ٦/ ٣٠٤.

بالنتيجة فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾... ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه وإظهار فساد الشرك علم أنه لا طريق أوضح ولا أصلح منه»[1].

وقوله: «صرّح بالنتيجة» هو الذي أغرانا بالقول بأنه جعلها مركز السورة يعني القطب الذي تدور عليه.

وفي مواضع أخرى ينبه على صلة الأغراض والتقائها بعد تفرقها وانقطاعها من خلال آيات تجمع ما تفرق وتؤلف بين ما تباعد، وكأن عمل هذه الآيات تكوير ما تحور داخل السورة من أصول، والاستدارة على ما انجر في ثناياها لتوحيده وإجماله، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

ذكر أنه: «لما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الكفار بالله، فإن لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته، فإذا أشرك كفر بآيات الله، وإشارة إلى المنكر للحشر فإن من أنكره كفر بلقاء الله فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة؛ لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يُرْحَم، وإذا كانت له جهات متعددة لا يبقى محلًّا للرحمة، فإذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين، فييأسوا من رحمة الله، ولما أنكروا الحشر وقالوا: لا عذاب. فناسب تعذيبهم تحقيقًا للأمر عليهم، فإذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر»[2].

فتأمل كيف نشر الإمام ما تحت لفظي ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ و ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ وحار بهما إلى أصول وأغراض السورة السابقة، وعلق الآية بهما فجعلها مهديدًا لمن أنكر وحدانية الله وأعرض عن الآيات ولمن أنكر اليوم الآخر.

---

(١) "التفسير" ٥/ ٩٤، وينظر ٩/ ٥٩٦

(٢) "التفسير" ٩ / ٤٣

وكذلك تأخير الاحتجاج في قوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ -٩٠] إلى ما بعد الغرضين بينها لو جاءت عقيب التوحيد لخصت به لمناسبتها الشديدة له ؛ لأنها من دلائله ولكن لما أخرت بعد ذكر الإعادة تشربت معاني من الغرض السابق أمكن معها تحميل اللغة مضامين الغرضين السابقين يقول في توجيه معناها: «اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكري الإعادة وأن يكون المقصود الرد على عبدة الأوثان، وذلك لأن القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا: نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله زلفى، ثم إنه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة: أحدها: قوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ ووجه الاستدلال به على الإعادة أنه تعالى لما كان خالقًا للأرض ولمن فيها من الأحياء، وخالقًا لحياتهم وقدرتهم وغيرها، فوجب أن يكون قادرًا على أن يعيدهم بعد أن أفناهم. ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الأوثان، من حيث إن عبادة من خلقكم وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ معناه الترغيب في التدبر؛ ليعلموا بطلان ما هم عليه. وثانيها: قوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ووجه الاستدلال على الأمرين كما تقدم، وإنما قال: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تنبيهًا على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة. وثالثها: قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾. اعلم أنه سبحانه لما ذكر الأرض أولًا والسماء ثانيًا عمم الحكم ههنا، فقال: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، ويدخل في الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة، وقوله: ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ يقال: أجرت فلانًا على فلان إذا أغثته منه ومنعته. يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحدًا»[1].

(١) "التفسير" ٨/ ٣٩٠.

والعناية بوجوه الترتيب لم تكن بين الأغراض المختلفة فحسب بل داخل فروع الأصل الواحد، لأن الانتظام فيها يكون وفق أولويات يقتضيها المقصد، فيقدم الأهم ويلحق به ما كان تبعًا وعرضًا في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الزمر: ٢٢]

يقول: «والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا؛ لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض»[1].

فوجوب الإقبال على طاعة الله الأقوى لها ذكر الآخرة، وقوة هذا المعنى جاءت؛ لأن سياق الكلام يقتضيه ولأنه أصل في الترغيب مع تضمنه لمعنى التنفير فتقديمه هيأ للمعنى بعده ومكن لتفريعه عليه.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] فـ «لما شرح معايب هؤلاء الكفار وفضائحهم عاد إلى الترغيب في مقاتلتهم، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآيات السابقة أسبابًا كثيرة موجبة لقتالهم وذكر منافع كثيرة تحصل في مقاتلتهم، كقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٤]. وذكر أقوالهم المنكرة وأعمالهم القبيحة في الدين والدنيا وعند هذا لا يبقى للإنسان مانع من قتالهم إلا مجرد أن يخاف القتل ويحب الحياة، فبين تعالى أن هذا المانع خسيس؛ لأن سعادة الدنيا بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة في البحر، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل جهل وسفه»[2].

---

(١) "التفسير" ٩/ ٤٤٠

(٢) "التفسير" ٦/ ٤٧.

فالآية وإن كانت تتعلق بآيات الترغيب وتعود إليها إلا أن تأخيرها ووضعها بعد شرح فضائح الكفار والأسباب الموجبة لقتالهم أضاف إليها معنى زائدًا على الترغيب وهو التقرير عليهم بأنه لم يبق باعث للنفرة عن الجهاد إلا حب الحياة والركون إلى متاع الدنيا، فوضع الاستفهام في حيز السياقات السابقة يستحثهم على التأمل ومراجعة النفس في البواعث التي تعيقهم عن قتال الكفار مع ظهور فضائحهم وإباحة قتالهم وأنه لم يبق معه باعث سوى حب الحياة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

يقول فيها: «ومن تأمل في هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه، فإنه تعالى لما بين قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم، بين مالهم في الآخرة من العذاب الشديد ومالهم في الدنيا من وجوه المحنة والبلية ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال لا ينتفعون به يوم القيامة البتة. ثم بين في هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم، وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات في الدين والدنيا، ومبطل لجميع الخيرات في الدين والدنيا، وإذا وقف الإنسان على هذا الترتيب عرف أنه لا يمكن ترتيب الكلام على وجه أحسن من هذا»[1].

فتأمل كيف وقف عند تناسق المعاني وحسن تتابعها وتجاورها وأدارها على المعنى المقصود من السياق، هو أن النفاق جالب لجميع الآفات فجاءت الآيات لإشاعة الحسرة في نفوسهم؛ لأنه لما كان قد وقع في ظنهم حصولهم على فائدة من منافع الدنيا قطع ذلك الرجاء بأن بين أن ما يجدونه من منافع في الدنيا وطيبات هي سبب في زيادة الحسرة واجتماع المحن عليهم، فإذا علموا ذلك زادت حسرتهم وانقطع رجاؤهم.

---

(١) "التفسير" ٦/ ٧١.

وأيضًا في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة:٢٠٠]. نبه على الترتيب التدريجي في بناء المعاني، وما ينطوي عليه من أسرار يقول فيها: «اعلم أن الله تعالى بين أولًا تفصيل مناسك الحج، ثم أمر بعدها بالذكر، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾[البقرة:١٩٨].

ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره، وأن يقتصر على ذكره فقال: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ ثم بين بعد ذلك الذكر كيفية الدعاء، فقال: ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾وما أحسن هذا الترتيب، فإنه لابد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها، ثم بعد العبادة لابد من الاشتغال بذكر الله تعالى لتنوير القلب وتجلي نور جلاله، ثم بعد ذلك الذكر يشتغل الرجل بالدعاء ؛ فإن الدعاء يكمل إذا كان مسبوقًا بالذكر»[(١)].

وبهذا تصبح السورة وحدة مكتملة تتفاعل عناصرها وتتشارب فلا ينظر في فصل من الفصول بمعزل عن ما قبله، وكذلك الألفاظ توضع في سياق الأغراض السابقة، وتوجه دلالتها باعتبار أجواء السورة كلها، فالإبهام في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ففي قوله: ﴿ تَسْمَعُونَ ﴾ إبهام؛ لأنه «لم يبين أنهم ماذا يسمعون إلا أن الكلام من أول السورة إلى هنا لما كان واقعًا في الجهاد علم أن المراد: وأنتم تسمعون دعاءهم إلى الجهاد»[(٢)].

وكذلك الإجمال في لفظة ﴿ الْأَنبَاءِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّنَ الْأَنبَاءِ

(١) "التفسير" ٢/ ٣٣٥.

(٢) "التفسير" ٥/ ٤٦٩.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]. وقد ردّ بعضهم النبأ إلى ما قبله من الإخبار عن إهلاك المكذبين، ورده آخرون إلى جميع ما في القرآن من أنباء، أما الرازي فيجريها في سياق الأغراض السابقة ويقتص ما قبلها من أنباء فوجد أنها تستوعب جميع الأنباء الواردة في السورة من إخبار «الرسول لهم باقتراب الساعة، وإقام الدليل على صدقه، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر.. فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة وذكروا الأقاويل الكاذبة، فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفًا لهم، وهذا هو الترتيب الحكمي، ولهذا قال بعد الآيات: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾[القمر:٥]»[1].

وأيضًا العدول عن لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾في سورة العنكبوت – مع أنه الاسم المهيمن على آياته – إلى لفظ «الرب» في قوله: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾[العنكبوت:١٠]. وذلك لأن الكلام خرج لغرض آخر فناسبه لفظ الرب «لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة»[2].

ويتخذ منهج الرازي في دراسته لما بين الأغراض من علاقات مسارين الأول: يحدد الغرض ابتداء ثم يدير عليه المقاصد. والثاني وهو الأغلب: يحلل كل آية ثم يردها إلى الأصل المتفرعة عنه ثم يربط ما بين الأغراض المختلفة بردها إلى غرض كلي وهو الغرض الذي يكثر الرد إليه فيصبح هو مركز السورة المسيطر على تنظيم آياتها.

فسورة «الفاتحة» يركز دلالتها في مقصد كلي هو عمودها ومدار آياتها ومفرداتها وهو: إثبات الألوهية والدعوة للتوحيد وتفرع منه الأمر بالعبودية، فـ «التوحيد أصل والعبودية فرع، والتوحيد شجرة، والعبودية ثمرة، ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر»[3].

(١) "التفسير" ١٠/ ٢٩١.

(٢) السابق ٩/ ٣٤

(٣) السابق ١/ ٢١٥.

ثم يقسم السورة إلى مقطعين: الأول: في تقرير الربوبية، والثاني: في العبودية، يقول في هذا: «معرفة الربوبية فكمالها مذكور في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فكون العبد منتقلًا من العدم السابق إلى الوجود يدل على كونه إلهًا وحصول الخيرات والسعادات للعبد حال وجوده يدل على كونه ربًّا رحمانًا رحيمًا، وأحوال معاد العبد تدل على كونه مالك يوم الدين، وعند الإحاطة بهذه الصفات حصلت معرفة الربوبية على أقصى الغايات، وبعدها جاءت معرفة العبودية ولها مبدأ وكمال، وأول وآخر، أما مبدؤها وأولها فهو الاشتغال بالعبودية وهو المراد، بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. وأما كمالها فهو أن يعرف العبد أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعته إلا بتوفيق الله، فعند ذلك يستعين بالله في تحصيل كل المطالب، وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولما تم الوفاء بعهد الربوبية وبعهد العبودية ترتب عليه طلب الفائدة والثمرة وهو قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. وهذا ترتيب شريف رفيع عالٍ يمتنع في العقول حصول ترتيب آخر أشرف منه»[1].

ويسيطر هذا المقصد على ترتيب الأسماء داخل نسق السورة وتوزيعها على هذه الهيئة ويجعل منها تفريعًا لجهات الألوهية وتغذية لدلالة الربوبية، فهي تنظيم لأحوال خلق الإنسان «فاسم الله منبع الخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، واسم الرب يدل على التربية بوجوه الفضل والإحسان، واسم الرحمن يدل على التربية في معرفة المبدأ، واسم الرحيم في معرفة المعاد حتى يحترز عما لاينبغي ويقدم على ما ينبغي، واسم الملك يدل على أنه ينقلهم من دار الدنيا إلى دار الجزاء»[2].

وأما سورة «البقرة» فيجعل مركز السورة وجذر أغراضها التأكيد على الميثاق الذي أخذه الله على المكلفين، فبدأت السورة بتقديم أحكام الفرق الثلاثة أي: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، ثم إقام الدلالة على التوحيد والنبوة والمعاد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟

(١) "التفسير" ١/ ٢١٥.

(٢) السابق ١/ ٢٤٤.

رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ * وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة: ٢١ - ٢٥].

وجاء تأكيده بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾[البقرة:٢٧]. والميثاق هو حجة الله القائمة على عباده الدالة لهم على صحة توحيده وصدق رسله[1] ثم تفرع على قوله: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ شرح النعم عامة واستمر هذا المعنى وامتد إلى الآية (٣٩). ونبه الرازي على أن النسق المعتبر في تفريع المعنى واستمراره يلاحظ فيه ما جرى داخل جذر الدلالة من ترتيب فبدأ أولًا بنعمة الإحياء وهي متفرعة من قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ ثم ذكر الانتفاع بالأرض والسماء وهو متفرع من قوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ فامتدت الآيات وتشعبت من تحت كلماتها و «ما أحسن ما رعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب فإن الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولًا ثم أتبعه بذكر السماء والأرض»[2].

ثم يرتب الدلالة المتفرعة على السياق العام ويجعلها «دالة على التوحيد من حيث إن هذه النعم أمور حادثة فلابد لها من محدث، وعلى النبوة من حيث إن محمدًا ﷺ أخبر عنها موافقًا لما كان موجودًا في «التوراة» و«الإنجيل» من غير تعلم ولا تلمذة لأحد، وعلى المعاد من حيث إن من قدر على هذه الأشياء ابتداء قدر على خلقها إعادة»[3].

---

(١) "التفسير" ١/ ٣٧٤.

(٢) السابق، ١/ ٣٧٩.

(٣) السابق ١/ ٤٧٣.

وترتيبها عليه شكل لها هيئة وأضاف لها معنى زائدًا على إثبات وجود الصانع أو التذكير بالنعم وخرج بها إلى زجرهم عما أقدموا عليه من ردّ الحق والتمسك بالكفر، وبعثهم على اكتساب الإيمان وقبول التكليف[1].

ثم شعب دلالة الفرع من العموم إلى الخصوص فاستأنف من الإنعام العام إنعاماته سبحانه وتعالى الخاصة على اليهود «كسرًا لعنادهم ولجاجهم.. واستمالة لقلوبهم بسببها، وتنبيهًا على ما يدل على نبوة محمد ﷺ من حيث كونها إخبارًا عن الغيب، واعلم أنه سبحانه ذكرهم تلك النعم أولًا على سبيل الإجمال، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ [البقرة:٤٠].وفرع عن ذكره الأمر بالإيمان بمحمد ﷺ ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾[البقرة:٤١]. ثم عقبها بذكر الأمور التي تمنعهم عن الإيمان به، ثم ذكرهم تلك النعم على سبيل الإجمال ثانيًا بقوله مرة أخرى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾[البقرة:٤٧]. تنبيهًا على شدة غفلتهم، ثم أردف هذا التذكير بالترغيب البالغ بقوله: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾مقرونًا بالترهيب ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ [البقرة:٤٨]. ثم شرع بعد ذلك في تعديد تلك النعم على سبيل التفصيل، ومن تأمل وأنصف علم أن هذا هو النهاية في حسن الترتيب لمن يريد الدعوة وتحصيل الاعتقاد في قلب المستمع»[2].

وذكر النعم مبني على التفريع فتجد التفصيل والتشقيق بشكل ظاهر حتى أن بعضها يكون ضمنًا فيما قبله ويكون نعمة واحدة، ولكن بناء الكلام يجعلها في مقام نعمتين كما في قصة إحياء القتيل، وذبح البقرة، وهما قصة واحدة، فالأصل في الكلام: أن يكون القتل مقدمًا على الأمر بالذبح فجاء بالتقديم والتأخير لزيادة التقرير عليهم، فـ «قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولو كانت قصة واحدة لذهب الغرض من بنية التفريع»[3].

---

(١) السابق، ١/ ٣٧٥.

(٢) "التفسير" ١/ ٤٧٣.

(٣) السابق ١/ ٥٥١.

ثم أردفها بالتشديدات التي فرضها الله على بني إسرائيل والفائدة منها الدلالة «على أن أمة محمد ﷺ خير الأمم ؛ لأن أولئك اليهود مع أنهم شاهدوا تلك البراهين القاهرة اغتروا بهذه الشبهة الركيكة جدًّا، وأما أمة محمد ﷺ فإنهم مع أنهم محتاجون في معرفة كون القرآن معجزًا إلى الدلائل الدقيقة لم يغتروا بالشبهات العظيمة، وذلك يدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلًا وأزكى خاطرًا منهم»[1].

ومكن ذلك لمعنى وهو وصف قبائح اليهود وشبهاتهم ومطاعنهم في نبوة محمد ﷺ ثم عاد إلى تقرير التوحيد بقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[البقرة: ١٠٧] . وذلك في سياق ردّ شبهة النسخ فـ «لما حكم بجواز النسخ عقبه ببيان أن ملك السماوات والأرض له لا لغيره، وهذا هو التنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما حسن منه الأمر والنهي؛ لكونه مالكًا للخلق... وإنما حسن التكليف منه لمحض كونه مالكًا للخلق مستوليًا عليهم لا لثواب يحصل أو لعقاب يدفع. قال القفال: ويحتمل أن يكون هذا إشارة إلى أمر القبلة فإنه تعالى أخبرهم بأنه مالك السماوات والأرض، وأن الأمكنة والجهات كلها له، وأنه ليس بعض الجهات أكبر حرمة من البعض... فلا مانع من تغيره من جهة إلى جهة»[2].

فهي تقرير المعنى قبلها؛ لأن المكلف مطالب بالانقياد لله؛ لأنه في ملكه وتدبيره ومستولٍ عليه فلا يسأل عن شيء من أفعاله وهم يسألون، وتهيئ لمعنى يتولد في ثنايا السورة وهو قوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ١١٥] لأن النسخ وتحويل القبلة بينهما مقاربة، وإشارة القفال تجعل ما بين آية النسخ وآية تحويل القبلة، متممًا لقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.

ثم ختم الفصل بعد أن استقصى شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل وشرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم – بما بدأ به وهو تذكيرهم بنعمه «وإلزامهم بما وثقهم به فقال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة:١٢٢][3]. وجاءت

(١) "التفسير" ١/ ٥١٢.

(٢) "التفسير" ١/ ٦٤٣.

(٣) ينظر " التفسير " ٢/ ٣٠.

قصة إبراهيم عائدة بالخطاب إلى المكلفين، أو الفرق الثلاثة التي ابتدأت السورة بهم يقول: «شرع سبحانه هنا في نوع آخر من البيانات وهو أن ذكر إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه: أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل... فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أمورًا توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه»[1].

أي هي تأييد لدين الإسلام وشرعه وفيها بيان لكمال حال أمة محمد ﷺ وأن هذا الدين هو استجابة لدعوات إبراهيم عند عمارته للبيت الحرام ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٩][2].

ويجعل قصة إبراهيم ويعقوب – عليهما السلام – تمتدان بسبب إلى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾[البقرة:١٢١]. يقول: «ولعل هذه إشارة إلى ذكر الدليل على وجود الصانع على ما ذكره الله تعالى في أول هذه السورة في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وههنا مرادهم بقولهم: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ ﴾ [البقرة:١٣٣]. أي نعبد الإله الذي دل عليه وجودك ووجود آبائك وعلى هذا الطريق يكون ذلك إشارة إلى الاستدلال لا إلى التقليد»[3].

وهذا فقه جيد في تحليل النصوص ورد الدلالة إلى عناصر مشابهة بحيث لا يفسر أي عنصر في غياب نظائره، فقول أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ ﴾ ظاهره يفيد التقليد والسير على هدى السابقين دون اعتبار الدلائل ولكن إجراءها وردها إلى سياق الأمر ورأس الكلام وهو قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ألف بين الدلالتين وبعث ما في باطن اللغة من معانٍ ووجه دلالتها إلى الاستدلال بخلقه وخلق آياته على إلوهيته سبحانه وعندها استقام الكلام وصحت طريقته.

---

(١) " التفسير " ٢/ ٣٠،٣١.

(٢) ينظر السابق ٢/ ٥٨.

(٣) السابق ٢/ ٦٦.

وقد هيأت هذه الآيات الدالة على صحة الإسلام إلى ذكر: شبه الطاعنين في الإسلام من قوله: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾[البقرة:١٣٥]. إلى قوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ [البقرة:١٤٢]. ثم قرر بعدها خيرية أمة محمد ﷺ بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] ومكن له قوله: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾[البقرة:١٤٢]. فـ «هذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكًا لله وملكا له، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلًا منه وإحسانًا فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة فضلًا منه وإحسانًا لا وجوبًا»[1].

وقد لخص الرازي السياقات السابقة حينما فسر قوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾[البقرة:١٥١]. وبين جهات اتصال المعاني بجمع معاقدها وتنظيمها بردها إلى أصل متفق يقول: «أعلم أنا قد بينا أن الله تعالى استدل على صحة دين محمد ﷺبوجوه بعضها إلزامية: وهو أن هذا الدين دين إبراهيم فوجب قبوله وهو المراد بقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾[البقرة:١٣٠]. وبعضها برهانية وهو قوله: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾[البقرة:١٣٦]. ثم إنه سبحانه وتعالى عقب هذا الاستدلال بحكاية شبهتين لهم: إحداهما: قوله: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ «والثانية استدلالهم بإنكار النسخ على القدح في هذه الشريعة، وهو قوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ وأطنب الله تعالى في الجواب عن هذه الشبهة وبالحق فعل ذلك، لأن أعظم الشبهة لليهود في إنكار نبوة محمد ﷺ إنكار النسخ، وختم ذلك الجواب بقوله: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٠].فصار هذا الكلام مع ما فيه من الجواب عن الشبهة تنبيهًا على عظيم نعم الله تعالى، ولا شك أن ذلك أشد استمالة لحصول العز والشرف في الدنيا والتخلص من الذل والمهانة يكون مرغوبًا فيه، وعند اجتماع الأمرين فقد بلغ النهاية في هذا الباب»[2].

---

(١) "التفسير" ٢/ ٨٤

(٢) السابق ٢/ ١٢٢.

ثم انتقل الكلام إلى جهة أخرى تتمة للإنعام وإن كانت صورة النظم في صورة المنفصل في قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٤-١٥٦]. فالسياق الأول كان في الأعمال الروحانية التي يستعين بها العبد على إقامة الدين وهذه فيما يستعين به من الأعمال البدنية بالأموال والأنفس[1].

وله وجه آخر وهو «أنه تعالى أخبر أن إكمال الشرائع إتمام النعمة، فكان ذلك موجبًا للشكر، ثم أخبر أن القيام بتلك الشرائع لا يمكن إلا بتحمل المحن فلا جرم أمر فيها بالصبر. والثاني: أنه تعالى أنعم أولًا فأمر بالشكر، ثم ابتلى وأمر بالصبر؛ لينال الرجل درجة الشاكرين والصابرين معًا، فيكمل إيمانه»[2]. ثم ختم هذا الفصل بمثل ما بدأ به بتقرير التوحيد والحكم بالفردانية والاستدلال عليه بالدلائل وأردفه بالتعريض بالمشركين في قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]. ثم توسط التعريض بطريقة تذكير المشركين إنعام الله عليهم في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:١٦٨].

واستمر الكلام في ذلك إلى قوله: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۖ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١].

---

(١) "التفسير الكبير" ٢/ ١٢٥.

(٢) السابق، ٢/ ١٢٨.

وهذا التوسط لفائدة وهي كمال إنعام الله وإحسانه «وأن معصية من عصاه وكفر من كفر به لم يؤثر في قطع إحسانه ونعمه عنهم»[1].

ولاح في خاطري معنى هداني إليه كلام الرازي، وهو أن الغرض من شرح النعم بداءة للتقرير عليهم والتنبيه على شدة غفلتهم وعنادهم وبيان نقصان المنعم عليهم، ثم ختمها بتقرير ألوهيته ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[البقرة:١٦٣]. لبيان كمال المنعم، وهذه مقابلة لطيفة استدعاها التشابه في بناء ترتيب فاتحة الفصل وخاتمته.

وأما قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢]. فهي فصل وغرض آخر فـ «الله سبحانه وتعالى تكلم من أول السورة إلى ههنا في دلائل التوحيد والنبوة واستقصى في الرد على اليهود والنصارى، ومن هنا شرع في بيان الأحكام»[2].

ويجعلها شبيهًا بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[البقرة:١٦٨][3]. إلا أن هناك فروقًا في الدلالة باعتبار الأغراض واللغة، فالأولى جاء فيها الأمر عامًا مسبوقًا بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ لأنه في سياق الإنعام، وفي الثانية خصصت الدلالة بـ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لأنه يترتب عليها ذكر الأحكام، ويتفرع عنها، فالأغراض نزعت بالدلالة نحو الخصوص.

والأحكام ليست غرضًا مستقلًا أو في معزل عن غيره من الأغراض، وإنما تمتد بوشائج وأسباب تصلها بمركز السورة وجذرها فقوله تعالى: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[البقرة:٢١١].

---

(١) "التفسير" ٢/ ١٨٥.

(٢) "التفسير" ٢/ ١٩٠.

(٣) "التفسير" ٢/ ١٩٠.

ليس المقصود به حقيقة السؤال والاستخبار؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أطلعه ربه على أحوال بني إسرائيل مما لا يحتاج معه إلى مسألتهم «بل المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله تعالى، وبيان هذا الكلام أنه تعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:٢٠٨]

فأمر بالإسلام ونهى عن الكفر، ثم قال ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ ﴾[البقرة:٢٠٩]. «أي فإن أعرضتم عن هذا التكليف صرتم مستحقين للتهديد بقوله: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٠٩] ثم بين ذلك التهديد بقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة:٢١٠].

ثم ثلث ذلك التهديد بقوله: ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[البقرة:٢١١] يعني سل هؤلاء الحاضرين أنا لما أتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها لا جرم استوجبوا العقاب من الله تعالى، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زالوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمين»[1]

وكأن الرازي يريد بقوله: «وبيان هذا الكلام» أن يطمئن القارئ لصحة المعنى المستنبط ويشكل أمامه الهيئة التي تولدت من ترتيب المعاني من بيان التأليفات المعنوية، وهو وصف للمعنى بعد وضعه في حيز معانٍ سابقة، وكيف اختلفت دلالته من الإخبار إلى هيئة أخرى وهي المبالغة في التهديد.

ثم جاء في ثناياه معانٍ تحتاج إلى إشباع فاستمر الكلام في إشباع الدلالة السابقة فجاء قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[البقرة:٢١٢].

---

(١) "التفسير" ٢/ ٣٦٥.

وهو تفريع لجملة: ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾[البقرة:٢١١]. «فـ «أتبعه الله بذكر السبب الذي لأجله كانت هذه طريقتهم، فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ﴾. ومحصول هذا الكلام تعريف المؤمنين ضعف عقول الكفار المسرفين في ترجيح الفاني من زينة الدنيا على الباقي من درجات الآخرة»[(١)]، واستلزم ذلك البيان بيانًا آخر وهو «أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان، بل كان حاصلًا في الأزمنة المتقدمة؛ لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق، ثم اختلفوا وما كان اختلافهم إلا بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا فهذا هو الكلام في ترتيب النظم»[(٢)]. ثم يرد هذه الآيات إلى الجذر المتفرعة عنه، وهو قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ يردها إليه ويجعلها تجري في حيز دلالته[(٣)].

ويختم الفصل بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤]. ويصله بالغرض الكلي وهو بيان خيرية أمة محمد ﷺ ففائدة الآية: أنكم لا تستحقون الفضيلة والخيرية إلا إذا صبرتم على المحن والبلوى واحتملتم الشدائد في إقامة الدين وصبرتم وصابرتم على الحق[(٤)].

وكانت فرشًا لما بعدها من الأغراض فقد هيأت النفس لقبول التكاليف والأحكام التي أعقبتها في قوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢١٥].

---

(١) "التفسير" ٢/ ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) ينظر: السابق ٢/ ٣٧٤.

(٣) السابق ٢/ ٣٧٢.

(٤) ينظر: "التفسير" ٢/ ٣٧٧ – ٣٧٨.

لأنه «لما بالغ في بيان أنه يجب على كل مكلف أن يكون معرضًا عن طلب العاجل، وأن يكون مشتغلًا بطلب الآجل، وأن يكون بحيث يبذل النفس والمال في ذلك، شرع بعد ذلك في بيان الأحكام.. لأن من عادة القرآن أن يكون بيان التوحيد وبيان الوعظ والنصيحة وبيان الأحكام مختلطًا بعضها بالبعض؛ ليكون كل واحد منها مقويًا للآخر مؤكدًا له»[1].

وربط هذا التنوع بغرض السورة في موضع آخر يقول: «إنه تعالى مدح المؤمنين في سورة البقرة من أول السورة إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة:٥]. وذم الكافرين في آيتين: أولهما قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:٦]. إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٨]. ثم ذم المنافقين في ثلاث عشر آية: أولها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[البقرة:٨]. إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]. ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كأنه قيل: هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة. فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة»[2].

فالتجاور ليس رصفًا عريًا عن الفائدة، وإنما تجد الدلالة تدخل في نسيج سابقتها وتغير في مدلولها وتضيف إليها هيئة وخصوصية ما كانت لولا ترتبها عليها وحسن ردها إليها.

ثم انتقل الكلام إلى قصة طالوت بعد الحث على الإنفاق في قوله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].

مما يوهم ظاهره بالخروج عن نسق المعنى السابق، وبالتأمل في ترتيب المعاني وبناء بعضها على بعض تجد أن السياق يتناوب معنى الجهاد والإنفاق فيأتي الجهاد ثم يردفه بالإنفاق وكأنهما معنيان متلازمان، إذا ذكر أحدهما نبه على الآخر واستحضره، يقول: «إنه تعالى أمر بالقتال فيما سبق بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٤]. ثم أعقبه بقوله:

(١) "التفسير" ٢/ ٣٨١.

(٢) "عجائب القرآن" الرازي ص٩.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والمقصود منه إنفاق المال في الجهاد ثم إنه مرة ثانية أكد الأمر بالقتال وذكر فيه قصة طالوت ثم أعقبه بالأمر بالإنفاق في الجهاد»[1].

فاقتران الإنفاق بقصة طالوت حفز الذهن إلى معنى الجهاد رديفه في التركيب فنبه على هيئة القصة وانتزعها من معنى الحكاية إلى تأكيد معنى الجهاد والحث عليه، وهذه خصوصية زائدة على أصل الدلالة شكلها التآلف المعنوي وترتيب المعاني بعضها على بعض.

ولم يقتصر الرازي على ذلك وإنما أكد هذا الوجه بقرينة لفظية تصحح العلاقة، وهي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:٢٤٦].: «أي هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف ربه، ولم يف بما قيل من ربه وهذا هو الذي يدل على تعلق هذه الآية بقوله قبل ذلك: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكأنه تعالى أكد وجوب ذلك بأن ذكر قصة بني إسرائيل في الجهاد وعقب ذلك بأن من تقدم على مثله فهو ظالم والله أعلم بما يستحقه الظالم وهذا بين في كونه زجرًا عن مثل ذلك في المستقبل وفي كونه بعثًا على الجهاد»[2].

وتخلل الكلام آيات في التوحيد وقصص لإثبات العلم بالصانع وإثبات الحشر والبعث وعاد بعدها إلى أحكام الإنفاق في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

وهذه النقلة بين المعاني لم تنفك بها عرى النظم وإنما هي تجري في سياق المعنى السابق وتقويه وتزيد في بيانه يقول: «في كيفية النظم وجوه: الأول: قال القاضي رحمه الله: إنه تعالى لما أجمل في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فصل بعد ذلك في هذه الآية تلك الأصناف وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماته من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق؛ لأنه لولا وجود الإله المثيب المعاقب لكان الإنفاق في سائر الطاعات عبثًا، فكأنه تعالى قال لمن رغبه في الإنفاق: قد عرفت أني خلقتك، وأكملت نعمتي عليك بالإحياء، والإقدار وقد علمت قدرتي على المجازاة والإثابة، فليكن

(١) "التفسير" ٢/ ٥٣٠.

(٢) السابق ٢/ ٥٠٣.

علمك بهذه الأحوال داعيًا إلى إنفاق المال، فإنه يجازي القليل بالكثير، ثم ضرب لذلك الكثير مثلًا...

الوجه الثاني: في بيان النظم ما ذكره الأصم، وهو أنه تعالى ضرب هذا المثل بعد أن احتج على الكل بما يوجب تصديق النبي ﷺ؛ ليرغبوا في المجاهدة بالنفس والمال في نصرته وإعلاء شريعته»[1].

فالقاضي يجعل إثبات وجود الإله مرغبًا في الإنفاق ومقويًا له. ويردها الأصم إلى المعنى الكلي وهو إقامة الحجة والدلالة على نبوة محمد ﷺ؛ ليكون ذلك المثل مرغبًا لهم في الجهاد. واستمر المعنى إلى نهاية السورة، وقد وقف الرازي على طريقة التفريع واستمراره، فبدأه بتعظيم الإنفاق في سبيل الله من قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٢].. وأتبعه ببيان الأمور التي يجب تحصيلها حتى يبقى ذلك الثواب، منها ترك المن وترك الأذى، وقول المعروف، وذلك في آيات من قوله: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦٦]. يقول: «اعلم أنه رغب في الإنفاق، ثم بين أن الإنفاق على قسمين: منه ما يتبعه المن والأذى، ومنه ما لا يتبعه ذلك.

ثم إنه تعالى ذكر ما يتعلق بكل واحد من هذين القسمين، وضرب لكل واحد منهما مثلًا يكشف المعنى ويوضح المقصود منه على أبلغ الوجوه.

ثم إنه تعالى ذكر في هذه الآية أن المال الذي أمر بإنفاقه في سبيل الله كيف ينبغي أن يكون فقال: ﴿ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة:٢٦٧][2].

(١) "التفسير" ٣/ ٣٩.

(٢) "التفسير" ٣/ ٥٢.

ثم جاء قوله: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٨]. لأنه لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يكسبه حذره من اتباع وسوسة الشيطان وما يلقي في نفسه من تخويف الفقر مما قد يضعف عزيمته على الإنفاق[١].

ولما كان هذا المعنى موضع عناية امتد واستطال وبالغ في الحث على الإنفاق من الأجود الأكمل إلى الآية (٢٧١) في قوله: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[البقرة:٢٧١].

ليعيد تشكيل المعاني السابقة ويضع لها هيئة ثانية تتشاكل معه يقول: «اعلم أنه تعالى لما بين أولًا: أن الإنفاق منه ما يتبعه المن والأذى، ومنه ما لا يكون كذلك، وذكر حكم كل واحد من القسمين، ثم ذكر ثانيًا: أن الإنفاق قد يكون من جيد ومن رديء، وذكر حكم كل واحد من القسمين، وذكر في هذه الآية أن الإنفاق قد يكون ظاهرًا وقد يكون خفيًّا»[٢].

والرازي غالبًا ما يقف عند آية يعيد بها ترتيب المعاني السابقة ويوجه علاقاتها توجيهًا مختلفًا ويستنبط بها ما في طيات ذلك التجاور من إضافة معانٍ وزيادة بيان، فالإنفاق من الجيد والرديء لم يكن قسيمًا ظاهرًا وإنما أبرزه التصنيف الثالث وأخرجه من باطن الكلام إلى ظاهره.

وأظن هذه هي الهيئات التي يشكلها الترتيب والتأليفات بين المعاني بعطف بعضها على بعض فيحصل لها في الذهن هيئة لم يفدها ظاهر الكلام وإنما دل عليها التأليف.

وفرع على الإنفاق ذكر الربا لوجود «مناسبة من جهة التضاد ؛ لأن الصدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمر الله بذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه، فكانا متضادين»[٣].

---

(١) "التفسير" ٣/ ٥٥.

(٢) "التفسير" ٣/ ٦١.

(٣) "التفسير" ٣/ ٧٢.

ثم استأنف حكم الدين لمعنى يتعلق بالأمر بالإنفاق والأمر بترك الربا يقول: «إن الله سبحانه لما ذكر قبل هذا الحكم نوعين من الحكم أحدهما: الإنفاق في سبيل الله وهو يوجب تنقيص المال. والثاني: ترك الربا، وهو أيضًا سبب لتنقيص المال، ثم إنه تعالى ختم ذينك الحكمين بالتهديد العظيم، فقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨١]. والتقوى تسد على الإنسان أكثر أبواب المكاسب والمنافع ذلك بأن ندبه إلى كيفية حفظ المال الحلال وصونه عن الفساد والبوار، فإن القدرة على الإنفاق في سبيل الله، وعلى ترك الربا، وعلى ملازمة التقوى لا تتم ولا تكمل إلا عند حصول المال، ثم إنه تعالى لأجل هذه الدقيقة بالغ في الوصية بحفظ المال الحلال عن وجوه التَّوَى والقلق، فحث على الاحتياط في أمر الأموال؛ لكونها سببًا لمصالح المعاش والمعاد، قال القفال رحمه الله: والذي يدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار وفي هذه الآية بسط شديد، ألا ترى أنه قال: ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ ثم قال: ثانيًا: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ ثم قال ثالثًا: ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ فكان هذا كالتكرار لقوله: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ لأن العدل هو ما علمه الله، ثم قال رابعًا: ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ وهذا إعادة الأمر الأول ثم قال خامسًا: ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ وفي قوله: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ كفاية عن قوله: ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه، ثم قال سادسًا: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ وهذا تأكيد. ثم قال سابعًا: ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فهذا كالمستفاد من قوله: ﴿ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ ثم قال ثامنًا: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ وهو أيضًا تأكيد لما مضى، ثم قال تاسعًا: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة، وكل ذلك يدل على أنه لما حث على ما يجري مجرى سبب تنقيص المال في الحكمين الأولين بالغ في هذا الحكم في الوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك والبوار فيتمكن الإنسان بواسطته من الإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن مساخط الله من الربا وغيره، والمواظبة على تقوى الله...»[1].

(١) "التفسير" ٣/ ٨٩، ٩٠.

فالحث على التقوى في سياق الإنفاق في سبيل الله وترك ما من شأنه أن ينمي المال ويزيده في الظاهر أوهم المخاطب أن التقوى المأمور بها تسد عليه جميع المكاسب والمنافع مما قد يفرط معها الإنسان في حفظ حقوقه، فانتهج ذلك حكم الدين؛ ليفيد أن الأصل هو حفظ المال وصيانته؛ لأن به يصلح معاش الإنسان ومعاده.

وما ذكره الرازي من قول القفال يقوي به سلامة المعنى من خلال الأبنية اللغوية وأن المبالغة في الحث على حفظ المال جارٍ ومتردد بشكل بالغ في أبنية الآية وبسطها للمعاني في موضع يتأتى معه الاختصار، ولكن التفصيل الشديد أفاد العناية بالمعنى وجاءت هذه المبالغة متناسبة مع السياق السابق الذي قابلها بالتأكيد على الإنفاق.

فالمعاني الفرعية شديدة الملازمة للغرض الأصلي حتى كأنها دعامة له لا تنفك عنه، كما في تعقيب قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٣٧]. بالأمر بالصلاة في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨].

فحصل من ترتيبها فائدة «أحدها: أن الصلاة لما فيها من القراءة والقيام والركوع والسجود والخشوع تفيد انكسار القلب من هيبة الله تعالى، وزوال التمرد عن الطبع وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى والانتهاء عن مناهيه.. والثاني: أن الصلاة تذكر العبد جلالة الربوبية وذلة العبودية وأمر الثواب والعقاب، فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة ولذلك قال: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾. والثالث: أن كل ما تقدم من بيان النكاح والطلاق والعدة اشتغال بمصالح الدنيا، فأتبع ذلك بذكر الصلاة التي هي مصالح الآخرة»[1].

وقرينة كونها متفرعة من تحت بيان ذلك الغرض رجوع الكلام بعدها ومعانقته للأصل بأسلوب التعميم بعد الخصوص في قوله: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢٤١]. فهناك ذكر حكمًا خاصًا، وههنا ذكر حكمًا عامًا»[2]

(١) "التفسير" ٢/ ٤٨٢.

(٢) "التفسير" ٢/ ٤٩٤.

ولما أعاد حكم المتعة معممًا زاد في التهيئة بذكر القصص في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٣]. لـ «يحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد»[1]

وبهذا نجد الرازي يجعل سورة «البقرة» قضية واحدة، وكلامًا متفقًا أوله مع آخره يصب في غرض واحد ينميه ويفرع عليه مجارٍ مختلفة تعود لتصب في دلالته وتزيد في أصل بيانه، وهذه منهجية صارمة وفقه واعٍ في تنظيم الدلالات والتأليف بين المعاني وإدارتها حول مقصد كلي هو عمودها الذي عليه المدار وبه الاستقرار، وهذا المقصد هو إثبات خيرية أمة محمد ﷺ، وأن منهج الإسلام هو المنهج الصحيح والصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله وذلك الفلاح، وهذا المعنى ليس ظاهرًا وإنما تولد من ترتيب الأغراض وتفريعها فشكل هيئته وأبان عنه بما بث فيها من تفريعات هي مقدمات وتمهيدات ومنها ما هو كالتتميم والتأكيد والتفصيل والبيان وكل ذلك يقرر الأصل ويبينه.

وفي سورة «النمل» يصرح بتقسيم السورة إلى فصول ويديرها على المقصد الجامع لها وهو الرد على عبدة الأوثان ولفتهم إلى دلائل صدق نبوة محمد ﷺ؛ لذلك بدأها بالثناء على من آمن به وصدق واتبع هدى الله الذي جاء به فقال: ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل:١-٣].

وأردفه ببيان ما للكفار المعرضين عن الدلائل من سوء العذاب: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ [النمل:٤،٥]. أما وسط السورة فيشمل «عدة فصول:

الفصل الأول: في الرد على عبدة الأوثان، ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه

(١) "التفسير" ٢/ ٤٩٥.

وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة من لا منفعة منه البتة...

تكلم بعده في حال المعاد وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة، أو في كمال العلم فإذا ثبت كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات وعالمًا بكل المعلومات ثبت القول بالحشر...

ولما تمم الكلام في إثبات المبدأ أو المعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد ﷺ القرآن لا جرم بين الله تعالى أولًا كونه معجزًا»[1].

وجاء قوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[النمل:٧٩] تنمية للسياقات السابقة وتأكيدًا لظهور حجة رسالته وأن المحق حقيق بنصر الله وتمكينه، وهذا باعث وسبب لتقوية قلب الرسول على التبليغ وإظهار الدين.[2] ويلاحظ استمرار السورة في بناء الأغراض والفصول بعضها على بعض في نسق متتابع دون تفريع على الفروع إلا ما جاء في نهاية فصل النبوة حيث ارتد الكلام إلى ذكر المعاد وكان ذلك لفائدة بيانية وهي: «أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة، وكمال العلم، ثم فرع عليها القول بإمكان الحشر، ثم بين الوجه في كون القرآن معجزًا، ثم فرع عليه نبوة محمد ﷺ، ثم تكلم في مقدمات قيام القيامة وإنما أخر تعالى الكلام في هذا الباب عن إثبات النبوة؛ لما أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في وجوه الترتيب»[3].

أي أنه لما كانت أحوال القيامة من الأمور الغيبية التي لا يمكن معرفتها إلا بواسطة الرسل قرر أولًا صدق نبوته بالدلائل ثم فرع عليها أحوال القيامة ولم يفرعها على إثبات الحشر رغم أنه يقتضيها وهي تأتي في أكثر القرآن مقترنة به، لأمر يتصل بأجواء السورة وسياقها؛ لأن الخطاب مع المنكرين الطاعنين في نبوته فإثبات وقوع القيامة لا يتم إلا بعد تقرير دلائل صدق نبوته ﷺ.

---

(١) "التفسير" ٨/ ٥٦٢-٥٦٩-٥٧٠.

(٢) السابق، ينظر: ٨/ ٥٧١.

(٣) "التفسير" ٨/ ٥٧٢.

وسورة «فصلت» أنموذج مكتمل لدراسة بناء الكلام بعضه على بعض، وتعليق جميع عناصرها بجذر واحد ومركز واحد تلتقي عنده الدلالات تتفرع منه وتغذي دلالته وتستطيل بمعناه في تنامٍ مستمر إلى أن يكتمل، وفي كل نقلة واستمرار ورجوع تتشكل هيئات تزيد في دلالته وتفصل مجمله، فقلب السورة هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت:٥] يعلق بها جميع المقاطع، ويهتدي ببصيرة نافذة إلى ما خلف مواقع التأليف من معانٍ وأحوال هي بسبب منها.

وبدأ بذلك بتصنيف السورة إلى مقاطع وفصول بحيث لا تجد آية في الفصل التالي يمكن أن تكون فيما قبلها، فكل مقطع يمثل وحدة معنوية صغرى، هي في ذاتها غرض ولها دلالة ولكن تأليفها وترتيبها على الأصل يوجه دلالتها إلى ما يناسب ذلك الأصل ويقويه؛ لذلك سأعرض تقسيمه للسورة بكاملها وكيف كان يقف عند كل وحدة؛ ليربطها بذلك الجذر.

أولًا: وحدة الافتتاح: من الآية ١ إلى الآية ٨: ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ * قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت:١-٨].

ثانيًا: من الآية ٩ إلى الآية ١٢: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

[فصلت:٩-١٢].

بمثابة الاستدلال على قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ ف «لما أمر محمدًا ﷺ في الآية الأولى أن يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ﴾ أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته في خلق السماوات و الأرض في مدة قليلة..»[1].

ثالثًا: من الآية ١٣ إلى الآية ١٨: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[فصلت:١٣-١٨].

يقول: «اعلم أن الكلام إنما ابتدئ من قوله: ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ واحتج عليه بقوله: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾. وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له في الإلهية؟ ولما تم تلك الحجة قال: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾. وبيان ذلك لأن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم، فلهذا السبب قال: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾»[2].

ثم استمر المعنى السابق وتشعب عنه العذاب في الدنيا، فجاء المقطع الرابع من الآية ١٩ إلى الآية ٢٤: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ

(١) "التفسير" ٩/ ٥٤٣.

(٢) "التفسير" ٩/ ٥٥١.

عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت:١٩-٢٤].

يقول في ذلك: «واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة؛ ليحصل منه تمام الاعتبار في الزجر والتحذير»[١].

المقطع الخامس: من الآية ٢٥ إلى الآية ٢٩: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت:٢٥-٢٩]. يقول: «اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ ﴾»[٢]. ثم يرتب المقاطع كلها ويردها إلى جذر الكلام يقول: «واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدئ من قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾. فأجاب الله عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع»[٣].

المقطع السادس: من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٢: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى

(١) "التفسير" ٩/ ٥٥٥.

(٢) السابق ٩/ ٥٥٧.

(٣) "التفسير" ٩/ ٥٥٨.

كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فـ «لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه»[1].

المقطع السابع: من الآية ٣٣ إلى الآية ٣٦: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت. ٣٣-٣٦].

والرازي قبل أن يبين وجه العلاقة يستحضر ترتيب الآيات ثم يصلها برأس الكلام وجذره فيمكن لها مع ما قبلها ومع أصل الكلام يقول في ذلك «إنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدئ حيث قالوا للرسول ﷺ: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك، ثم ذكروا طريقة أخرى في السفاهة، فقالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية والبيانات الكافية في دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة، فإن الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات.. فقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ﴾ فهذا وجه حسن في نظم آيات هذه السورة، وفيه وجه آخر وهو أن مراتب السعادات اثنان: التام، وفوق التام، أما التام: فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملًا في ذاته، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين، إذا عرفت هذا فنقول قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ إشارة إلى المرتبة الأولى.... فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية وهي الانتقال بتكميل الناقصين... وهو المراد من قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ﴾[2]

---

(١) السابق ٩/ ٥٦٠.

(٢) "التفسير" ٩/ ٥٦٢.

المقطع الثامن: من الآية ٣٧ إلى الآية ٣٩: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت:٣٧-٣٩]. يقول فيها: «اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلالة الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، وتنبيهًا على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن»[١].

المقطع التاسع: من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٢: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٠-٤٢]. فـ«لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ثم بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة، عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات ويحاول إلقاء الشبهات»[٢].

المقطع العاشر: من الآية ٤٣ إلى الآية ٤٦: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ ﴾ [فصلت:٤٣-٤٦].

---

(١) "التفسير" ٩/ ٥٦٥، ٥٦٦.

(٢) "التفسير" ٩/ ٥٦٨.

هذا المقطع «راجع إلى أمر رسول الله بأن يصبر على أذى قومه وألا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من أنهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ ﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾.. أن المراد ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة... ففوض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى... وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة هو ذكر الأجوبة عن قولهم: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ ﴾ فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه، وامتد الكلام في هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل»[1].

المقطع الحادي عشر: من الآية ٤٧ إلى الآية ٥٤: ﴿ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ * وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ * لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ * وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ * وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ * قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ * سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴾ [فصلت: ٤٧-٥٤].

وهذه خاتمة السورة، يذكر تعلقها بما قبلها: «اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله: ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا ﴾ ومعناها أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة، وكأن سائلًا قال: ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فقال تعالى.... ﴿ إِلَيۡهِ

(١) "التفسير" ٩/ ٥٦٩.

﴿ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾... ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة، وهذا الذي ذكره شديد التعلق أيضًا بما وقع الابتداء به في أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمدًا ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام بدليل أنه قال في أول السورة: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾[1].

وبهذا التأمل وهذا النمط من التحليل تظهر وحدة الكلام فالترابط العضوي بين عناصر الكلام لا يتنامى في ظاهر اللغة وإنما وراء مواقع الأبنية تتشكل الوحدة وتكتمل الدلالة، فمتى قبضنا على المعنى الجذر أو الجملة الأم فإن جميع الأغراض تنحدر تبعًا إليه وتنساق بالذهن إلى أوديته فلا تجد شعبًا من شعب الكلام إلا وهو فرع عنه ويئول إليه وإن كان ظاهره مستقلًا. فالمقطع الخامس ليس ظاهرًا في كونه سببًا وعلة لإصرارهم على التمسك بشبهة ظاهرة في الضعف والوهن وإن ذلك بتزيين وتأييد قرناء ضلوا وأضلوا الناس وصرفوهم عن تأمل الأدلة والبراهين فكانوا كالحجاب المانع لهؤلاء عن النظر والاستدلال، وكينونة المعنى ليست في داخل التراكيب؛ لأن مدلول اللفظ هو ما ذهب إليه الزمخشري «يعني أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين»[2]. ولكن تعليقه بجذر الدلالة نزع باللغة نحو ذلك المعنى فمنحه خصوصية تناسبه وتأتلف معه. وكذلك المقطع السابع صورته صورة الخبر ولكن رده إلى قوله: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ﴾وترتيبه عليه أحدث فيه هيئة زائدة وخصوصية بيانية لم تكن لولا ذلك التأليف وهي «المواظبة على التبليغ»وأحسب هذه الزيادات والتشكيلات التي تحدث في الكلام بسبب الترتيب والتي يسميها الرازي تنبيهات هي الهيئات الناتجة عن التأليفات المعنوية التي أشار إليها حازم وجعلها مناط الأسلوب.

---

(١) "التفسير" ٩/ ٥٧١.

(٢) "الكشاف" ٤/ ١٩٦.

وفي «نظم الدرر» نجد الإمام البقاعي يربط عناصر السورة وأغراضها بالمغزى وهو المعنى الذي أنتجه التأليف المعنوي بين الآيات وهو «الإعلام بأن العلم إنما هو ما اختاره المحيط بكل شيء قدرة وعلمًا لعباده فشرعه لهم فجاءتهم به عنه رسله، وذلك العلم هو الحامل على الإيمان بالله والاستقامة على طاعته المقترنة بهما»[1]. وهذا بخلاف ما رأيناه عند الرازي، وهو إن خالفه في المنبع إلا أنه يستند في توجيه دلالة الفروع على ما ذكره الرازي ولا يختلف معه إلا في مقطعين في قوله: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ فالرازي يجعله متعلقًا بجذر الدلالة ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ فـ «كأنه تعالى يقول: إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا: قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة فبقي أن يقال: أن كل من آتاه الله طبعًا مائلًا إلى الحق، وقلبًا مائلًا إلى الصدق، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين فإن هذا القرآن يكون في حقه هدى وشفاء.. وأما من كان غارقًا في بحر الخذلان وتائهًا في مفاوز الحرمان ومشغوفًا بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن في أذنه وقرًا، كما قال: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ وكان القرآن عليهم عمى كما قال: ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظمًا مسوقًا نحو غرض واحد»[2].

والبقاعي يرده إلى مفتتح السورة ويعلقه بقوله: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ يقول: «ولما افتتح السورة بأنه أنزل على أحسن الوجوه وأجملها وأعلاها... فقالوا فيه: ما وقعت هذه التسلية لأجله من قولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ إلى آخره، وكان ربما قال قائل: لو كان بلسان غير العربي، وأعطي هذا النبي فهمه والقدرة على تبيينه لكان أقوى في الإعجاز وأجدر بالاتباع، أخبر أن الأمر ليس كذلك؛ لأنهم لم يقولوا هذا لشك حصل لهم في أمره بل عنادًا... فقال على سبيل التأكيد، معلمًا بأن الأمر على غير ما ظنه الظان، وقال الأصبهاني: إنه جواب عن قولهم: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾. والأحسن عندي أن يكون معطوفًا على ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾»[3].

---

(١) "نظم الدرر" ٦/ ٥٤٧.

(٢) "التفسير" ٩/ ٥٧٠.

(٣) "نظم الدرر" ٦/ ٥٨١.

وأيضًا في المقطع الأخير ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ حيث جعله الرازي توجيهًا للمشركين للتأمل والبحث عن الأدلة، فليس العلم بكون القرآن باطلًا علمًا بديهيًا فجاء التحذير من الإصرار على دفع الأدلة دون التحقق من صحتها؛ لأن الإصرار على دفعها وهي حق من أعظم موجبات العقاب. (١)

والبقاعي يربطه بالمغزى وهو العلم، يقول: «لما دل اتباعهم للظن حتى في ذلك اليوم الذي تنكشف فيه الأمور- على أنهم في غاية العراقة في الجهل والرسوخ في العجز أتبع ذلك الدليل على أن ذلك طبع هذا النوع فلا يزال متبدل الأحوال متغير المناهج وإن أحس بخير انتفخ عظمه وتطاول كبرًا، وإن مس ببلاء تضاءل ذلًا وامتلأ ضعفًا وعجزًا، وذلك ضد مقصود السورة الذي هو العلم؛ بيانًا لأن حال هذا النوع بعيد عن العلم»(٢).

وأنا أستحسن ما ذهب إليه الرازي؛ لأن ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾هي قلب السورة، فما قبلها من ذكر الكتاب، وتفصيل آياته يمهد لها وما بعدها يجليها ويبينها ومجيئها بعد تفصيل الآيات لا للتأكيد على العلم؛ لأن الدلائل ظاهرة وقوية، وإنما لبيان شريحة من الناس تتجلى أمامهم الحقائق وتقهرهم الدلائل بظهورها وقوتها ثم يجادلون فيها ويعرضون عنها، فدأبهم التشكيك فيها والطعن بأوهي الحجج. وتبين السورة منهج الدعوة إلى الله مع وجود هذا الصنف وكشف دواخلهم والمسببات التي أنتجت مثل هذا النوع من العقول من قرناء السوء وما جبل عليه الإنسان من التبدل(٣). ثم ختمها بالتحذير والوعيد من مغبة هذا المنهج وبيان المسلك الصحيح في فحص الأدلة قبل الإصرار على تركها.

والإمام في تحليله للسور السابقة يسعى إلى دمج العناصر الدلالية المتحدرة من فروع مختلفة ويؤلفها بمعنى كلي يجمع أعناقها ويضبط معاقدها، وأما في سورة «النساء» فينبه على

(١) ينظر : "التفسير الكبير" ٩/ ٥٧٣.

(٢) "نظم الدرر" ٦/ ٥٨٦.

(٣) "التفسير الكبير" ٩/ ٥٧٣.

مسلك آخر يقصد فيه الاختلاف والتنوع، ويجعل تمام الدلالة ومقاطعها الخروج عن المقصد؛ لذلك كان يكتفي في دراسته للسورة غالبًا بالتنبيه على مواضع القطع والرجوع دون بيان لوجه العلقة بين الأغراض، فقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٤،٤٥] يقول: إنه «لما ذكر من أول هذه السورة إلى هذا الموضع أنواعًا كثيرة من التكاليف والأحكام الشرعية، قطع ههنا ببيان الأحكام الشرعية، وذكر أحوال أعداء الدين وأقاصيص المتقدمين؛ لأن البقاء في النوع الواحد من العلم مما يكل الطبع ويكدر الخاطر فأما الانتقال من نوع من العلوم إلى نوع آخر فإنه ينشط الخاطر ويقوي القريحة»[1].

وهذا وإن كان في أسلوب القرآن وترتيب معانيه، إلا أنه ظاهرة بارزة في سورة «النساء» لأن مدار السورة على تقرير الأحكام لذلك يكثر فيها الخروج وليس لذلك غرض سوى معاضدة تلك الدلالة والتلطف في تقريرها يقول في هذا: «اعلم أن عادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أن يذكر شيئًا من الأحكام ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة الهيبة ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلى التأثير في القلوب؛ لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول إلا إذا كان مقرونًا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الدين الحق، وإذا عرفت هذا فنقول: أنه سبحانه ذكر في أول هذه السورة أنواعًا كثيرة من الشرائع والتكاليف ثم أتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين واستقصى في ذلك ثم ختم تلك الآيات الدالة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه، ثم عاد بعد ذلك إلى بيان الأحكام»[2].

---

(١) "التفسير" ٤/ ٩١.

(٢) "السابق" ٤/ ٢٣٢،٢٣٣.

أما السور القصار فالكلام فيها عامد إلى الغرض منصب إليه متجرد له، حالها كالجملة الواحدة التي تتضام ويتصل أولها بآخرها؛ لتفيد معنى واحدًا، كما في سورة «البروج» فـ «المقصود من هذه السورة تسلية النبي وأصحابه عن إيذاء الكفار، وكيفية تلك التسلية هي أنه تعالى بين أن سائر الأمم السالفة كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود، وختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا في التكذيب ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر، وهو قوله: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [البروج:٢٠]. ذكر وجهًا ثالثًا هو أن هذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير وهو وقوله: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ [البروج:٢١]. فهذا ترتيب السورة»[1].

فهذا تركيز لدلالة الآيات وتحريكها تجاه مقصد كلي يربط بينها ويجعل منها جملة واحدة، فليست هناك تفريعات أو نقلة وإنما كل آية هي استمرار لما قبلها حتى يكتمل المعنى ويتم.

وسورة «المزمل» يجعلها في مقطعين متقابلين حيث «بدأ في أول السورة بشرح أحوال السعداء، ومعلوم أن أحوالهم قسمان أحدهما: ما يتعلق بالدين والطاعة للمولى فقدم ذلك، والثاني: ما يتعلق بالمعاملة مع الخلق وبين ذلك بقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾[المزمل:١٠]. وأما الأشقياء فقد بدأ بتهديدهم على سبيل الإجمال، وهو قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المزمل:١١]. ثم ذكر بعده أنواع عذاب الآخرة ثم ذكر بعده عذاب الدنيا وهو الأخذ الوبيل في الدنيا، ثم وصف بعده شدة يوم القيامة فعند هذا تم البيان بالكلية فلا جرم ختم ذلك الكلام بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾[المزمل:١٩] [2].

وأحيانًا يداخل أغراضها أصول أخرى فسورة الغاشية مدار آياتها على إثبات يوم القيامة وتأكيد وقوعه، وخالطها النقلة إلى إثبات الإلوهية وذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع، وذلك لأن إثبات الحكم بوقوع يوم القيامة مترتب في إثباته على تقرير هذه الدلائل،

---

(١) "التفسير" ١١/ ١٠٦.

(٢) السابق ١٠/ ٦٩٣.

يقول: «اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسم أهل القيامة إلى قسمين الأشقياء والسعداء، ووصف أحوال الفريقين، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم، لا جرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧]. وجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد أنها تدل على وجود الصانع الحكيم، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد.... فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة، فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة.[1]

وقد لفت الإمام إلى تداخل القصص مع الأغراض في كثير من سور القرآن الكريم، ودل على ما فيه من فوائد وأسرار متنوعة بعضها يمكن أن يقال في سياق كل قصة وهي عدة «أمور: أولها: أن الانتفاع بالدليل العقلي المحض إنما يحصل للإنسان الكامل، وذلك إنما يكون في غاية الندرة، فأما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول.

الوجه الثاني: أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التي كان الأنبياء -عليهم السلام- يتمسكون بها ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم في دفعها ثم يذكر عقيبها أجوبة الأنبياء عنها ثم يذكر عقيبها أنهم لما أصروا واستكبروا وقعوا في عذاب الدنيا وبقي عليهم اللعن والعقاب في الدنيا والآخرة، فكان ذكر هذه القصص سببًا لإيصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين وسببًا لإزالة القسوة والغلظة عن قلوبهم فثبت أن أحسن الطرق في الدعوة إلى الله تعالى ما ذكرناه.

الفائدة الثالثة: أنه ﷺ كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذة لأحد، وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه.

---

(١) "التفسير" ١١/ ١٤٣، ١٤٤.

الفائدة الرابعة: إن الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة، فإذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع فلابد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل في القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال، فهذا كلام جليل في فوائد ذكر هذه القصص»[1].

فهو عادة مألوفة ومسلك ظاهر في البيان القرآني[2]، وبعضها خاص يتشكل باعتبار من الأغراض المحيطة بالقصة فتنزع بالقصة إلى دلالة معينة تخرج بها الحكاية إلى معنى متمم لبيان السورة ومقصودها وجعل هذا الباب من أنفس علوم القرآن يقول في إيراد قصة موسى وفرعون في سورة الزخرف أن المقصود من إعادتها «تقرير الكلام الذي تقدم وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيرًا عديم المال والجاه، فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة... أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش. فقال: إني غني كثير المال.. وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولًا من الله إلى الملك الكثير الغنى، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]. وقد أوردها بعينها فرعون على موسى.. وليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تقرير للقصة البتة وهذا من نفائس الأبحاث»[3].

فالسياق قلل من شأن الحمولة التاريخية؛ لأنها ليست تقريرًا للقصة البتة، وإنما هي صياغة وتصوير للردّ على الشبهة المذكورة وتقرير الجواب عنها.

---

(١) "التفسير" ٦/ ٣٩٥.

(٢) ينظر: "التفسير" ٧/ ٦٤.

(٣) "التفسير" ٩/ ٦٣٦.

وأيضًا قصة إبراهيم في نفس السورة خرجت عن الحكاية وسلك بها مسلك الرد على فساد القائلين بالتقليد يقول: «اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داعٍ يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف، ثم بين أنه طريق باطل ومنهج فاسد،.... أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين: الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل... وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد... فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية.

الوجه الثاني: في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه في متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقيًا في عقبه إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة»[1].

ونفاسة هذا المبحث جاءت من أن القصة تحيل إلى معانٍ تتصل بمقاصد السورة وأغراضها ولها مواقع مختلفة، فتارة تكون رمزًا لحمولات دلالية متكاثرة لا يستوعبها اللفظ الصريح فتوضع الحكاية؛ لتومئ إليها وتوحي بتلك المعاني وتحيل الذهن إليها كما في ذكر قصة نوح عليه السلام في سورة يونس عليه السلام يقول: «اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات التي جرت بين نوح وبين أولئك الكفار، ذكر ما إليه رجعت عاقبة تلك الواقعة، أما في حق نوح وأصحابه، فأمران: أحدهما أنه تعالى نجاهم من الكفار.....، والثاني: أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق، وأما في حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم، وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرًا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح، وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان، ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح، وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ، وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء عليهم السلام»[2].

---

(١) "التفسير" ٩/ ٦٢٩.

(٢) السابق ٦/ ٢٨٦.

فالأبلغية في الحكاية جاءت من كونها ذات معانٍ متكاثرة ومتضمنة لمقاصد مختلفة ما بين الوعد والوعيد والترغيب والتحذير إلى جانب ما فيها من تنشيط للسامع وخروج به من فن من فنون الكلام إلى آخر فيجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلًا قويًا لمتابعة القول[1] فـ «الحكايات إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية »[2] أي أنها داخلة في بناء الكلام ونسجه وتقع مواقع معانٍ يعدل عن التصريح بها كما في الوعيد السابق عدل عنه صراحة إلى الرمز بالقصة.

ويبين هذا أيضًا ما ذهب إليه في جعله القصص الثلاث الواردة في سورة «الحاقة» دعامة يرتكز عليها المعنى ويقوم بها فهي مركز الكلام وحلقة الوصل بين طرفيه يقول: «واعلم أنه تعالى لما حكى هذه القصص الثلاث ونبه بها عن ثبوت القدرة والحكمة للصانع فحينئذ ثبت بثبوت القدرة إمكان القيامة، وثبت بثبوت الحكمة إمكان وقوع القيامة، ولما ثبت ذلك شرع سبحانه في تفاصيل أحوال القيامة»[3].

فالسورة بدأت بذكر يوم القيامة ووصف أحوالها ثم ختمت بتفاصيل هذه الأحوال ومقدمتها، وتوسطت القصص بين المعنيين وهذا التوسط لفائدة وهي إثبات قدرة الله تعالى وحكمته فإذا تقرر هذا المعنى تأكد إمكانية وقوع القيامة وحسن بعدها ذكر التفاصيل، فتفاصيل أحوال القيامة لا يتمكن إلا بعد ثبوت إمكانية وقوعها.

وتارة تأتي لتقرير معانٍ ذهنية فتكون أشبه بضرب الأمثال كما في قصة عاد في سورة «الأحقاف»، فـ «لما أورد الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها أعرضوا عنها... فلما كان الأمر كذلك بين أن قوم عاد كانوا أكثر أموالًا وقوة وجاهًا منهم، ثم إن الله سلط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم، فذكر الله تعالى هذه القصة ههنا؛ ليعتبر بها أهل مكة فيتركوا الاغترار بما وجدوه في الدنيا ويقبلوا على طلب الدين، وهو مناسب لما تقدم؛ لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال»[4].

---

(١)"التفسير" ٦/ ٣٨٢.

(٢) "التفسير" ٩/ ٣٩.

(٣) السابق ١٠/ ٦٢٤.

(٤) السابق ١/ ٢٤.

واعتبار المقاصد في دراسة الحكاية لفت إلى أسرار التصرفات التي تختلف بحسبها القصة الواحدة فكل سورة لها مقصد محدد وهدف خاص، فـ «تتأثر في ألفاظها وتراكيبها بروح السورة وجوها الخاص، فيعبر عن المعنى الواحد.. بألفاظ وتراكيب تختلف قليلًا أو كثيرًا عن الألفاظ والتراكيب التي عبر عنها في السورة الأخرى»[1].

وما يتولد عنها من زيادات وتغيرات في دلالة الكلام يسمى بالمعاني الخادمة فهي ليست المقصود الأصلي ولكن من مكملاته ومتمماته[2].

فالقصة تذكر ثم تعاد في سورة أخرى وليس ذلك من التكرار وإنما لأن «القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه، ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر، فكذا في واقعة محمد ﷺ وفي هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش، فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان حاصلًا في زمان نوح، إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر، فكن يا محمد كذلك؛ لتنال المقصود، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليًا عن الفائدة»[3]. فاختلف المعنى باختلاف المساق فالأولى كانت في حال تكذيب الكفار واستعجالهم للعذاب، والثانية في حال مبالغتهم في إيذائه وإيحاشه عليه السلام. فاختلف وجه الانتفاع بها باختلاف مقصد السورة.

وقصة آدم ذكر أنها تكررت في القرآن في ست سور في كل لها معنى بحسب مغزى السورة والغرض فيها، ونبه على تصريفها باعتبار المقاصد وما يتولد عن هذا الاعتبار من توجيهات مختلفة تنزع بالحكاية إلى تقرير مضامين السورة وتقويتها، أو يردها إلى آيات محددة تعطي خصوصية للقصة وزيادات تشبع تلك الجمل وتبين عنها.

---

(١) "التناسب البياني" أبو زيد ١٧١.

(٢) "الموافقات" الشاطبي ٢/ ١٠٦.

(٣) ينظر: "الموافقات" ٢/ ١٠٦.

ففي سورة «الحجر» يربطها بما قبلها ويفرعها عليه، ويقول: «اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الإنسان الأول، واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار- ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس أبى وتمرد»[1].

وأما سورة «ص» فالقصة مقطع مستأنف يستقل بالفائدة في وجه ويرتد إلى مغزى ما قبلها ليقرره. يقول فيها: «المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدًا ﷺ بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا؛ ليصير سماعها زاجرًا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين، والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد»[2].

فخصوصية المعنى جاءت من الزيادة في تصريف الحكاية فأشبع القول في أنفة إبليس من السجود لآدم والتصريح باستكباره والتقرير عليه بالاستفهام ثم تصريح إبليس بالمانع له من السجود، فعمود القصة ومدارها بيان المانع من السجود؛ ليصير مرغبًا للمكلفين في النظر والاجتهاد ومانعًا من التقليد. بينما أوجزه في «الحجر» ودل عليه بقوله: ﴿أَبَىٰٓ﴾[الحجر:٣١].

وفي سورة «الإسراء» يوزع القصة على دلالات مختلفة في السورة ويعلق نظمها بما ذكر ذلك في قوله: «في كيفية النظم وجوه: الأول: اعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله ﷺ كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه بين أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك. ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم، ثم إنه كان في محنة شديدة من إبليس. الثاني: أن القوم إنما نازعوا رسول الله ﷺ وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين الكبر والحسد، أما الكبر فلأن تكبيرهم كان يمنعهم من الانقياد، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية، فبين تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من

(١) "التفسير" الرازي ٧/ ١٣٩.

(٢) السابق ٩/ ٤٠٩.

الإيمان والدخول في الكفر، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق. والثالث: أنه تعالى لما وصفهم بقوله ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٦٠]. بين ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس «﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٦٢].«فلأجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم فهذا هو الكلام في كيفية النظم ﷺ [(١)].

وفي الوجه الثالث يجعلها منجرة من تحت فاصلة الآية قبلها فتمكنت فيها تمكن السبب من المسبب، فجعل عمود القصة ومقصودها قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وكذلك في سورة «طه» سدت مداخل متعددة في الآية السابقة لها فهي تجري في أبنية تلك الجمل وتداخل بيانها قال فيها: «اعلم أن هذا هي المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن: أولها في سورة «البقرة» ثم في «الأعراف» ثم في «الحجر» ثم في «الإسراء» ثم في «الكهف»، ثم ههنا. واعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه: أحدها: أنه تعالى لما قال: "كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق «ثم إنه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة إنجازًا للوعد في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩]. ثانيها: أنه لما قال: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣].أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال: إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فإنا قد عهدنا إلى آدم من قبل أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه:١١٧].ثم إنه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم. وثالثها: أنه لما قال لمحمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه:١١٤].ذكر بعد قصة آدم عليه السلام فإنه بعدما عهد الله إليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية على التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان. ورابعها: أن محمدًا ﷺ لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[طه:١١٤]. دل على أنه كان في الجد في أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالإفراط وصف

(١) " التفسير " ٧/ ٣٦٥.

آدم بالتفريط في ذلك، فإنه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسى فوصف الأول بالتفريط والآخر بالإفراط؛ ليعلم أن البشر لا ينفك عن نوع زلة. وخامسها: أن محمدًا ﷺ لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ ضاق قلبه وقال في نفسه: لولا أني أقدمت على ما لا ينبغي وإلا لما نهيت عنه فقيل له: إن كنت فعلت ما نهيت عنه فإنما فعلته حرصًا منك على العبادة، وحفظًا لأداء الوحي وإن أباك آدم أقدم على ما لا ينبغي؛ للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره»[1].

وحينما يأتي إلى تحليل المقطع الأخير من القصة يقوي تعلقها وتفرعها عن قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[طه:١١٤]. فتكون «هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره»[2].

فكل سورة تذكر من القصة ما يتلاءم مع مغزاها كما في قصة موسى عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥، ٣٦]. فاكتفى بأحداث معينة من القصة «فذكر حاشيتيها أولها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم»[3]

فهذه الدراسة توجه النظر إلى ما في بناء الكلام من إحكام وتماسك ووصل حلقاته المتفرعة؛ لتصبح كيانًا متفقًا لا اختلاف فيه ولا تباعد ولا تدابر وإنما يصافح المعنى، فكل غرض يضطلع بوظيفة خاصة ضمن المجموعة؛ لذلك كان تتبع توزيع الأغراض داخل السورة هو المدخل لوصف المقصد الكلي لكل سورة.

❊❊❊❊

(١) "التفسير" ٨/ ١٠٥.

(٢) السابق ٨/ ١٠٧.

(٣) "التفسير" ٨/ ٤٥٩.